٣ بين مصر وسوريا

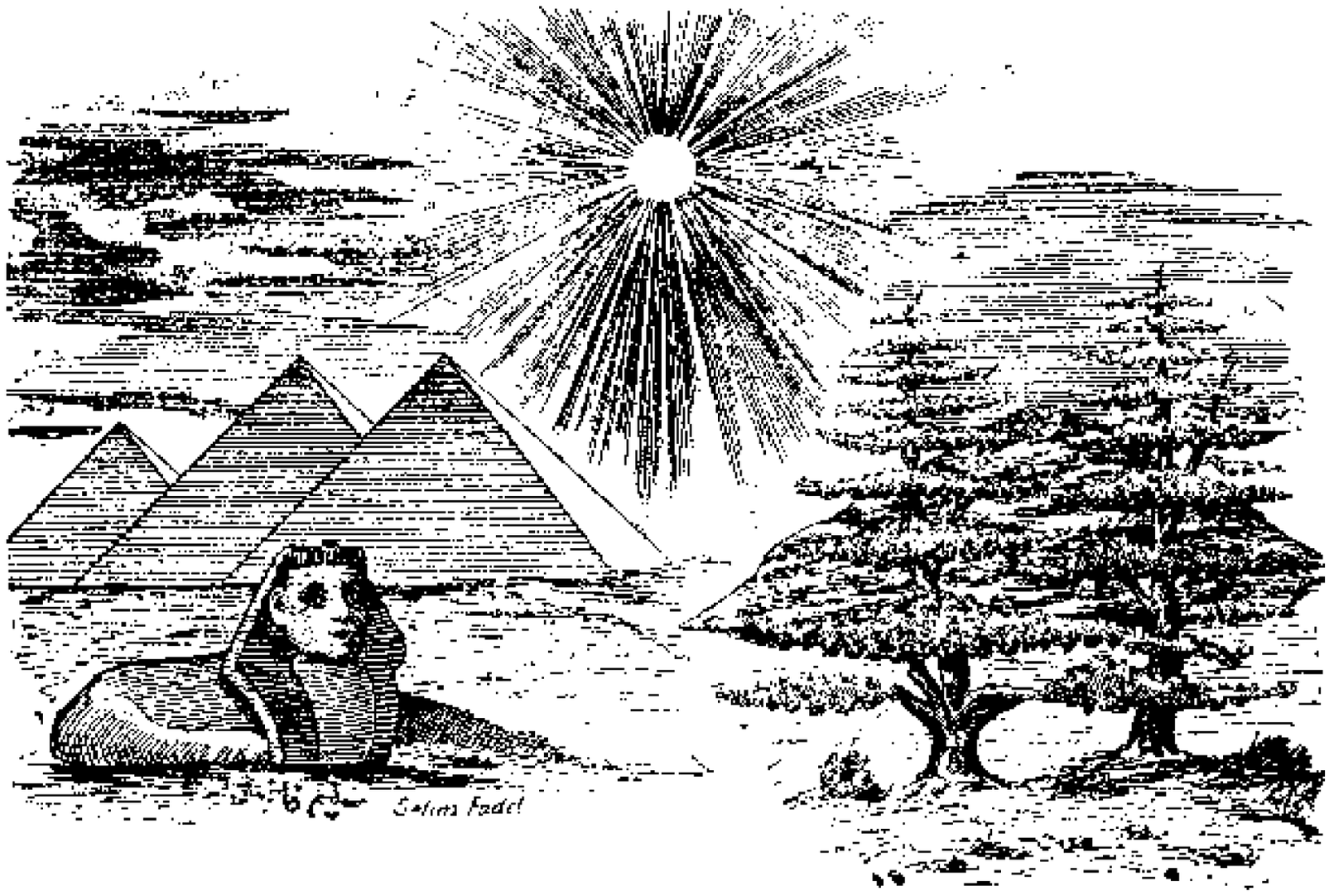

حبيتَ يا وطناً تصبو القلوبُ الى　　ارجائه وبه الارواح تغتبطُ
شمسُ المعارفِ في علياه جامعةٌ　　اطرافه وهي فيما بينها وسَطُ
ففي ذرى الارز حبلٌ من اشعتها　　يُلقى وحبلٌ على الاهرام منبسط

ابراهيم البازجي

القطران الشقيقان

حفرت معاولُ الفعلة ترعة السويس ، فكانت كالمبضع بتر شريانا بين عضوين في جسم واحد ، طالما توارد فيه الدم صعوداً من مصر الى سوريا ونزولاً من سوريا الى مصر . فاذا كانت سوريا قد انفصلت عن مصر بثغرة لا تزيد فجوتها عن ٦٥ متراً ، فلا تقولنّ إن يدَ ده لسپس

غلبت الطبيعـة . فالطبيعة لا تُغالب ، واذا ما غولبت غلبت . ولكن الانسان كان قبل مدنيتهِ يُخضع الطبيعة ويذللها ، فصار بعد ازدهار المدنية يستخدم بعلمه قواها وقوتها ، ولكنه يحسّ من نفسه انه خاضع لتلك القوات والقوى

اذا كان مصرائيم وكنعان قـد اجتازا برزخ السويس من سوريا الى مصر ، فصيرا منـافعها حقولاً ، وبحيراتها سهولاً ، وأكامها مـدناً ، ورواسبها دساكر وقرى . واذا كان توتمس وفواده قد عبروا ذلك البرزخ الى سوريا واكتسحوا الامصار ، وثلوا العروش ، ونصبوا لهم نصباً على ضفة الفرات ، فان سلاتس زعيم الرعاة قد نهج نهجهم فاجتاز البرزخ الى مصر ونصب على ضفات النيل هياكل وتماثيل . واذا كانت عبـادة الاله اودنيس والالاهة الزهرة قد تراءت من قنن لبنان الى هضاب اصوان ، فان عبادة الاله اوزيريس والالاهة ايزيس قد استفـاضت من شاطىء بحيرة المنزلة الى شاطىء العاصي . واذا كان الغزاة والفاتحون قد عدُّوا سوريا قلعة مصر ، فان الصناع والتجار الاسيويين قد حسبوا مصر مزرعة سوريا ، فهبطها يعقوب بابنائه يمترون ، وجاءها الفينيقيون يتجرون

ظن الرومان انهم اذا قالوا في الهياكل والمساجد ان ابن مصر من جالية النوبة لا من جالية فينيقيا واليمن ، غرسوا في فؤاده حب الاسود الافريقي لحسبانه اخاً ، واقتلعوا من صـدره حب الفينيقي والاشوري الابيض لحسبانه غريباً . ولكن الطبيعة التي لا تخضع الاّ لنظامها ابت على المصريين ان ينقادوا الى الكتب التي قالوا لهم انها مقدسة . على ان

لغة تلك الكتب بنبراتها ومقاطعها فينيقية سورية . بل ابت طبيعة الارض عليهم ان يكونوا الا اخوة السوريين اصقاء دارهم ، بل ابت التقاليد الواحدة الاّ ان يكونوا متحدين فلم ينل الرومان من تعاليمهم منالاً لان كل ما يخالف ناموس التكوين والوجود فانٍ ، وما ينجم عنه — وكان ثمرته — خالدٌ باقٍ

* * *

انقضت العصور المظلمة ، وباعدت الايامُ والاقدارُ بين اللغتين ، وفرّقت بين الدولتين والالهتين ، الى ان جمع بينهما عيسى بتعاليمه . ثمّ تلاه محمد بفرقانه . فازداد تفاعل القطرين واحتكاكهما ، وعاد احدهما طريق الآخر في البشارة بالدين ، والفتح بالقوة . فما انبعث نورٌ من مصر إلا ليكون وهجه في سوريا ، وما تلألأ ضوء في سوريا ، الا ليكون اول سطوعه في مصر . وما استفاض علمٌ في احداهما الا لتكون اول بوارقه في الاخرى . وذلك كان شأنهما من يوم كوّنتا ، وذلك سيكون شأنهما ما دامت الارض على تكوينها والافلاك على دورانها

واذا كانت قناة السويس قد عُدّت في هذا العصر ثغرةً فاصلة فتحتها يد المدنية ، فان تلك اليد الفاصلة نفسها قد وثّقت روابط الصلة ، وأحكمت عرى التواصل بأثير الهواء وثبج الماء ، فلا تُعدُّ القناةُ الآن فاصلاً . ومن على حافتيها يتخاطب المتقابلان ، ومن فوق مائها يتصافح الاخوان ومن ذا الذي يمنع الهواء ان يهبّ ، والماء ان يصبّ

علّم عبد الملك بن مروان المصريين لغة العرب فصاروا عرباً ، وعلّم خلفاؤه السوريين هذه اللغة فصاروا بها اخوة المصريين ، فاجتمع لهم

من روابط الاخاء والوئام والاتحاد اللغة والجوار ، ان لم نزد عليهما الدين . واذا ما تفاهم الناسُ تحابُّوا ، والكلمة التي تحتقرها اذا حدثت ، هي التي تعلم الامم ، لان بها يبرز الفكر جلياً للسامعين ، فمن كلّمتهُ بلسانه كنت اخاه بذلك اللسان ونقلت الى رأسه ثمار عقلك ، والى صدره خوافي صدرك . وتأخذ منه ما عنده وتعطيه ما عندك . تتأدب بأدبه ويتأدب بأدبك ، وتتعلم من علمه وتعلمه من علمك ، وفكرٌ لا يبرز بحلة الكلام وجوده كعدمه

هكذا كان شأن البلدين بعد الفتح الاسلامي وصيرورة لغتهما لغة واحدة . فما نبت فنّ في احدهما حتى جنى الآخر ثماره ، وما ظهر علم او عالِم حتى كان للاثنين معاً . فاذا قلّبت صفحات التاريخ ، وتراجم النوابغ ، ظهرت لك هذه الحقيقة ناصعة ، حتى كأن حبل المدنية واللغة في القطرين سلكٌ كهربائي ، اذا ارتجّ طرفه في بلد ارتج سائره في البلد الآخر ؛ واذا اضاء مصباحاً في القاهرة ، اضاء مثله في دمشق وبغداد . واذا ما ضربت السياسة للاوطان حدوداً ، فان العلم لا وطن له وان كان للعالِم وطن . واذا صحّ ان يُقال بين الامم الاخرى ان حدود الوطن باللغة ، فان هذا لا يصح بين مصر وسوريا ولغتهما واحدة

حكم محمد علي مصر وانشأ المدارس ، ونقل العلم الى لغة العرب ليعلم مصر ، ولكنه علّم بلاد العرب كلها ذلك العلم . وكان يكفيهم منه ان ينقله الى لغتهم ليتفهموه . ففي رؤوس جبل لبنان وفي اطراف سوريا يجد في خزانات الكتب كتب الطب للرشيدي ، والجغرافيا لكلوت بك ، والفلك لمختار باشا ، والهندسة لوهبي بك ، والزراعة لاحمد ندى الخ . وفي اطراف تلك

البلاد تجد اطباء شيوخاً ومهندسين هرمين تلقوا العلوم في مدارس مصر

وبدت النهضة الادبية في سوريا منذ خمسين عاماً ، فانتفعت بها مصر : فصحف البستاني ومجلاته وكتبه وقواميسه ودائرة معارفه ، ومؤلفات الشدياق ، وكتب اليازجي ، وتصانيف فانديك ، ومطبوعات اليسوعيين والاميركان وتآليفهم كانت لسوريا ومصر معاً . وهذه مجلات مصر وسوريا وصحف كلتيهما كأنها مجلات الأخرى وصحفها . وهؤلاء كتاب مصر وسوريا وعلماؤهما كلٌّ واحد منهم كاتب كلا القطرين وعالمه

تصعد الجبل في سوريا او تهبط الوادي ، فتسمع المغنين يتغنون بقصيدة شوقي ، او منظومة حافظ . وتطوف الارجاء هنا ، فتسمع الادباء يتحدثون بمؤلفات اليازجي او الشرتوني او البستاني ، وتطالع المجلات وفصولها فلا تجد فرقاً بين كاتب مصري ومصنّف سوري . واذا تدرجت في البحث والتنقيب ونزلت الى صميم الشعب وحياض العامة ، رأيت التقاليد بالاغاني والاناشيد والرقص والعزف واللهو والحزن والمآكل والملابس والافراح والمآتم والاثاث والفرش وتدبير المنزل نقل بعضها او اكثرها او كل جديد متقن منها من بر الشام الى بر مصر ، او من بر مصر الى بر الشام . فهما في اللغة والرقعة الجغرافية بلد واحد وان لم تكونا في السياسة كذلك

فاذا كانت «الزهور» قد أُنشئت لزيادة التعارف بين ادباء القطرين وعلماء المصرين ، فانما هي قد رمت الى غاية جلّ وغرضٍ نبيل ، قد يكون اقلُّ منافعهِ سرعان التعارف والترابط بين الادباء ، حتى يزداد الشعبان نفعاً بها ، بفضل لغتهما الواحدة

داود بركات